مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

الاتجاه العرفاني في الدراسات الدينية المعاصرة وأسئلة الراهن ... الأنسنة والتنوير أفقا مقارباتيا

The Sufist Tendancy in the Contemporary Religious Studies and Modern – day questions... Humanization and Enlightenment as Analytical Perspectives

د. سهيلة ميمون
chlefuniversit2005@yahoo.fr
جامعة حسيبة بن بوعلي -الشلف

تاريخ الإرسال :20-03-2019 تاريخ القبول :19-02-2020

الملخـــص :

من أهم قضايا الراهن التي انشغلت بها الدراسات الدينية المعاصرة؛ قضيتي: "الأنسنة" و"التنوير" باعتبارهما أساس البناء الفكري والقيمي للإنسان للإصلاح الاجتماعي والرقي الحضاري. وذلك في سياق تجديد الخطاب الديني للإسهام في تحقيق متطلبات العصر، تأسيسا على مبدأ "صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان". وفي هذا المقال نسلط الضوء على دور الخطاب الصوفي وفعاليته في تجديد الخطاب الديني من خلال نشر قيم الأنسنة والتنوير ، لتمكين الإنسان من رهان التعامل مع متطلبات

الكلمات المفتاحية: الأنسنة، التنوير، التجديد، الاجتهاد، الخطاب الديني،

ABSTRACT:

One of the focal themes in the field of contemporary religious studies are the topics of “humanization” and

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

"enlightenment". This particular interest in these two issues comes from the fact that they are considered as the pillars upon which man's ethical and cognitive construction stands on. These pillars are necessary for making social reformations and achieving civilizational prosperity. In this context, and based on the quotation of "the efficiency of Islam anytime and anywhere", there felt a need to modernise the religious discourse in order to meet the needs of our contemporary society. Hence, in this article we will shed the light on the role of the Sufist discourse and its efficiency in the process of modernising/renovating the religious discourse. This is achieved through focusing on the values of humanization and enlightenment for the purpose of meeting the contemporary world's needs.

KeyWords: Humanization, Enlightenment, modernisation, diligence, religious discourse.

المقدمـــة:

ما يميز الدراسات الدينية في السياق المعرفي الإسلامي؛ هو تنوع مصادر ومرجعيات قراءة وتأويل قضاياها، من فقهية وكلامية وتاريخية وفلسفية...وهذه المرجعيات إذا تختلف في مناهجها التفسيرية والتأويلية للقضايا الدينية، وفي مقاصدها وآفاقها المعرفية، فإنها تشترك جميعا في انطلاقها من النص الديني (القرآن والسنة). وهي إذ تنطلق من النص، فإنها تستهدف الوقوف على حقيقة المعنى الذي يستبطنه، تأويلا أو تفسيرا، بصدد قضية أو واقعة ما للحكم عليها. ومن ثم تحويل المعنى المدرك إلى مفهوم إجرائي أو آلية منهجية لبلورة رؤية نظرية أو تأسيس موقف عملي من مشكلة أو وضعية ما (نفسية، اجتماعية، دينية، سياسية، اقتصادية ...) تمس حياة الإنسان ونظام وحركة المجتمع، وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

إلا أن ما يلفت الانتباه، ويستوقف التفكير عند هذا الأفق؛ أفق مدى فعالية ونجاعة الدراسات الدينية في حل الإشكاليات النظرية، ومواجهة التحديات الاجتماعية والثقافية والحضارية، انطلاقا من المرجعيات السالفة الذكر وموازاة لها؛ هو وجود مرجعية دينية متميزة ومختلفة في طرحها النظري وتوجهها المنهجي عن تلك المرجعيات فيما يتعلق بالموقف من النص الديني. إنها **المرجعية العرفانية**. فإذا كانت تلك المرجعيات تشترك في استهدافها للنص الديني والانطلاق منه، مع اختلاف أساليبها ومناهجها في التعامل معه، فإن الاتجاه العرفاني يقوم في تعامله مع الدراسات الدينية وما يرتبط بها من أسئلة وجودية ومصيرية تتصل بواقع ومستقبل المجتمع الإنساني؛ على إحداث قطائع الإبستيمولوجية تنقل الفكر الإسلامي من فكر النص والانكفاء على التفكير فيه بدافع إنتاج المعنى، إلى فكر الإنسان والتفكير فيه ومن خلال الأسئلة التي تثيرها موجوديته التي تنطوي عليها اجتماعيته، لبنائه الروحي وتكوينه الفكري والنفسي والاجتماعي، وتأهيله للاضطلاع بدوره الحضاري وتفعيل القيم التي تتصل بإنسيته، وتواصله مع بني جنسه.

إنطلاقا من هذه الانعطافة الإبستيمولوجية للتوجه العرفاني للدراسات الدينية وربطها بأفق ومقصد إنسي، يتحرك فكرنا وتفكيرنا في هذا البحث من الاعتقاد بقدرة وفاعلية القراءة العرفانية للدين ومقاصده، ومن ثم الإجابة عن أسئلة الراهن التي تفرضها تحديات العصر وفقا لمستلزمات المنطق الديني. وإذا كانت الانشغالات والأسئلة التي يطرحها الراهن؛ هي تلك المتعلقة بالتسامح والتعايش السلمي والعيش المشترك بين الأمم، وحوار الثقافات والحضارات، ومشكلة الأقليات، وصراع الهويات... فإننا نجد في الوعي العرفاني إمكانا معرفيا وآداتيا لتجديد الخطاب الديني والانطلاق منه لتمكين الإنسان من رهان التعامل مع متطلبات الراهن، وإنتاج تلك القيم وتمثلها في ذاته وعلاقاته، وذلك انطلاقا من أنسنة الدين من خلال براكسيس يجعل الإنسان مركز

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

الدين، ليكرس الانتقال من الرؤى الفقهية والكلامية والأيديولوجية المشدودة إلى النص والتي غالبا ما فشلت في جعل الدين أداة سلام ، إلى التأسيس للإنسان، لأنسنة الدين عبر تجاوز صراع الأديان الذي يغذيه مبدأ الدين الحق أو الفرقة الناجية والانتقال من صراع الهويات الدينية.

وهذا ما دفعنا إلى اختيار قضيتي "الأنسنة" و"التنوير" كأفق فكري مقارباتي للتعاطي مع إشكالية التوجه العرفاني للدراسات الدينية وأسئلة الراهن من حيث القيمة والفعالية. والمبرر المنطقي لاختيار هذا الأنموذج هو أن ترسيخ ثقافة التنوير وتجذير وانتشار النزعة الإنسية في المجتمع يفضي تلقائيا إلى تحقيق قيم السلم والعيش المشترك وحوار الأديان والحضارات. وتكون، إذاك الدراسات الدينية ذات جدوى فعالية في تربية الإنسان وبناء المجتمع وتقدمه، وتدافعه وتعايشه مع المجتمعات الأخرى. وبهذا التوجه العرفاني للدين نحو مقصد الأنسنة، يتحقق مبدأ "صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان"، وتتجسد كل المفردات التي تخص عالميته.

1. الأنسنة والتنوير في الدراسات الدينية المعاصر ة إنبات إسلامي أم استنبات غربي؟:

ما يميز الدراسات الدينية في لحظتها المعاصرة، هو مسايرة قضايا الراهن، والانخراط في الإشكاليات الكبرى والمحورية من قبيل: جدلية العولمة والخصوصية الثقافية، والدين والدولة، ومسألة نظام الحكم وما يرتبط به من أليات تنظيمية كالديمقراطية، والشورى، والتعددية الحزبية، والأسلوب الانتخابي... وحوار الأديان والحضارات... هذا فضلا عن الإشكاليات والقضايا الجوهرية، القديمة المتجددة المتصلة بجوهر الخطاب الديني في ذاته، من قبيل إشكالية النص والاجتهاد، تجديد الخطاب الديني، مشكلة الفتوى ومدى مسايرتها للانهائية الأحوال، وكذا أزمات الفكر الإسلامي المعاصر. وهذه القضايا

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

على أهميتها في تجاوز المآزق والتحديات التي تواجه الأمة، وضمان انتظام صيرورتها التاريخية وتقدمها المستقبلي، إلا أن مدى فاعليتها مرتبط بتحقق قيمتين معرفيتين وأخلاقيتين ـــ وهما بمثابة اللازمتين الوجوديتين ـــ وتمكنهما من الوعي الجمعي المشترك، وهما قيمتي "**الأنسنة**" و"**التنوير**"، ومعنى كونهما لازمتين، أن القضايا السافة الذكر .بما هي أدوات وأليات نهوض الأمة وتفاعلها الإيجابي مع الأمم الأخرى؛ تلزمهما، وتعزز فاعليتهما في نفس الوقت.

اللافت للنظر، فيما يتعلق بسؤال "الأنسنة"، و"التنوير" المرتبط بها، بما هو جوهر الفعل التحديثي للمجتمع البشري ؛ أنه كثيرا ما تتم الإحالة إلى الفكر الغربي الحديث والمعاصر لمقاربته على اعتبار أن المفهوم نبت في تربته وتبلور فيها ابتداء. إلا إن مركزية الفكر الغربي وكثافة وانتشار تداوله في الدراسات الأكاديمية في العلوم الإنسانية فيما يتعلق بالحداثة وما بعد الحداثة، وما يرتبط بهما من تساؤلات حول الأنسة والتنوير باعتبارهما مكونين بنيويين ووظيفيين لهما، لا يعني أنه أساس ومرجع البناء الرؤيوي والتنظيري لهما على سبيل السبق والأصالة والتفرد. وإذا كان هناك سبق وتفرد، فهو لا يتعد النحت والتحديد الاصطلاحي، وما انجر عنه من مفاهيم وفلسفات برزت مع استعماله عند نشأته في الغرب في بدايات القرن الرابع عشر الميلادي[1]. ومن ثم ظهوره كحركة الإنسانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (حسب قول فيليب هودار في كتاب فلسفة الحداثة. نصوص مختارة. الذي جمعه محمد بن سبيلا وعبدالسلام بنعبد العالي[2]. أما فيما يتعلق بالأنسنة والتنوير كمطلبين وجوديين وقيمتين معرفيتين

[1]– فيصل عباس: "الفلسفة والإنسان"، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، ط1، 1996، ص: 142.

[2]– محمد سبيلا ـــ عبدالسلام بنعبد العالي: "الحداثة الفلسفية: نصوص مختارة"، طبعة الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2009، ص: 106–107

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

وأخلاقيتين، ومعيارين حضاريين، فإن لهما حضورا وامتدادا خارج الفضاء المعرفي الغربي، ويستندان في تأسيسهما إلى منطلق ديني، وليس كما "يذهب الذين يقعون في نفس الخطأ في الوقت الحاضر، إلى أن النهج الإنساني النزعة هو، في الأساس، نهج مناهض للدين، بينما تطورت النزعة الإنسانية، خلال أطول فترة من اريخها في إطار الفكر الديني وليس ضده"[1]. إذ أن جذورهما تمتد إلى عمق التراث العربي الإسلامي على مستويي النص والاجتهاد. وهو ما يؤكد أصالة التأسيس الإسلامي، ووجود عتبة إبستيمولوجية فارقة على مستوى المفهوم، والنظرة القيمية المعيارية، وكذا طبيعة الأفق والمقصدية من توظيفهما. فهما لم يحددا و لم يستعملا كما حصل لاحقا في الغرب. وجوهر الفرق بين الرؤية الإسلامية والغربية حول "الأنسنة و"التنوير" المرتبط بها، هو أن الغرب أراد أن يجعل من الإنسان آلهته التي لم يؤمن بها في مسيحيته، بينما الإسلام كان ينظر للإنسان كقيمة عليا وتكريمه كمقصد أسنى جاء مع الوحي الإلهي وليس متعارضا معه. وأن "الأنسنة تمثل روح وجوهر مقاصد الدين الإسلامي، أي أن "مقاصد الدين جاءت لإسعاد الإنسان وتكريمه وليس لتهميشه والتقليل من قدره، يقول الإمام الشاطبي: "أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل" [2]. ومفاد هذه النظرة الدينية المقاصدية؛ هو اعتبار إنسانية الفرد وطبيعته واحتياجاته أصل للبيان والتأويل والتفكير العلمي والتنزيل العملي لقضايا السياسة والاقتصاد والاجتماع. وليس في هذه الإنسانية تصادما مع الوحي المنزل، أو بديل عنه كما هو الشأن في المرجعية الفكرية الغربية، بل

[1]– محمود حسين: "البعد الإنساني في العصر الإسلامي"، مقال ضمن رسالة اليونيسكو، السنة 64، العدد 4، أكتوبر 2011، ص: 22.

[2]– أنظر: الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم): "الموافقات"، تحقيق عبدالله دراز 6/2، دار المعرفة، بيروت، 2011، ص: 220.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

اتفاق واستجابة له وفق مقتضى الفطرة، وهي الجبلة التي خُلِق عليها الإنسان وفق طبائعه وصفاته الأصيلة. وهذه الفطرة هي جوهر وروح الفعل الإنساني في الإسلام. وهي مرتبطة بتكريم الله للإنسان. كما يتضح ذلك في قوله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً"[1] ففي هذا النص القرآني تأكيد على حفظ الإنسان وحمايته من البشر والإهانة والظلم والدونية ، السمو به إلى مقام الخلافة في الأرض "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"[2]. كما سخّر الله تعالى الكون كله لخدمة الإنسان، قال تعالى: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"[3]. وبهذا التأصيل النصي والتوجيه القرآني ألغى الإسلام كل وساطة كهنوتية بين الله والإنسان. هذه بعض صور التكريم الرباني للإنسان، وكلها تدل بشكل واضح أن جذور الأنسنة ومركزية الإنسان في الكون وفقا لمقتضى الفطرة ومنطق الحق، ترجع إلى اللحظة المعرفية الإسلامية السابقة على إسهامات الفكر الغربي بقرون عديدة.

1.2 وضع الأنسنة في الخطاب الديني المعاصر:

إلا أن ما يسم أغلب دراسات الدينية المعاصرة في تعاطيها مع مطلب "الأنسنة" في تحقيق الوجود الفاضل للإنسان والنظام العادل للمجتمع، هو الانزلاق التأويلي لموضوع "الأنسنة" والانحراف الاجتهادي عن المبتغى الإنساني وتهميش مقتضياته من خلال تغليب الخطاب الأخروي وما يرتبط به من قضايا الوعد والوعيد والجزاء... على حساب المعاش ومتطلبات الحداثة، كالتخلص من الفقر والتخلف والأمية والاستبداد...

[1]– سورة الإسراء، الآية: 70.

[2]– سورة البقرة، الآية: 30.

[3]– سورة لقمان، الآية: 20.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

وإهمال المطلب الحقوقي المرتبط بحرية وكرامة الإنسان. وكذا هيمنة الروح الطائفية والمذهبية في النظر إلى تلك المطالب والحقوق، مما أثر سلبا على كل أشكال العلاقة بين الإنسان والإنسان أو بينه وبين احتياجاته الحياتية أو مطالبه الحقوقية أو حظوظه الدنيوية. فأصبح لا ينظر إليه، ولا يتم التعامل مع متطلباته وحقوقه إلا وفقا لانتمائه الديني، وهذا ما يهدد وجوده وكرامته، والاعتبار الإنسي لحاجاته.

والغريب في الأمر أن استشراء النزعة الطائفية والمذهبية في الخطاب الديني المعاصرة ينطلق من مرجعيات تأويلية فقهية وكلامية وفلسفية تعتقد بتمسكها بالنص والتزمها بالخط الإسلامي في التفكير. حول موضوع الأنسنة ومقتضياتها وآفاقها.

والتفكير في أفق تجاوز هذا المطب الطائفي في الخطاب الديني المعاصر يحيلنا بداهة وفورا إلى الإحالة المرجعية الدينية التي تنطلق من الدين في لامذهبيته (وحدته)، والتفكر في الإنسان من منظور كماله وكونيته، وهي المرجعية الدينية العرفانية. والتي هي رغم تراثيتها من حيث تاريخية تأسيسها، وفردية تجربتها من حيث طبيعتها، وميتافيزيقية رؤاها من حيث تنظيرها لمصير الإنسان، إلا أنها تمتلك كل المقومات المعرفية والأدوات المنهجية لتجاوز تراثيتها والقفز إلى لحظة الحاضر والانخراط في راهنيته للإسهام في توجيهها وتطويعها وفقا للمقتضى الإنسي البنّاء الذي يتطلبه المجتمع البشري في تطوره، ويراهن عليه الإنسان في حفظ وجوده وكرامته.

2. التأويل العرفاني مقابل المرجعيات الأخرى.. خصوصية الرؤية ودواعي التجاوز وآفاقه:

لقد شغل موضوع "الأنسنة" حيزا واسعا من دائرة التفكير داخل المنظومة المعرفية العربية الإسلامية في لحظتها التراثية بكل توجهاتها الرؤيوية والتنظيرية من دينية وأدبية وفلسفية... كما نقف على أصولها وفصولها في بواطن نصوص العلوم الدينية الخالصة

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

(النقلية) في ارتباطها المباشر بالقرآن والسنة؛ من خلال استنباطها لمفهومية الإنسان وقيمته ومركزيته في الكون، و في العلوم العقلية، كما نجد ذلك لدى ابن مسكويه والتوحيدي[1] في الخط الفكري الأخلاقي، والجاحظ وجابر بن حيان، والفارابي وابن باجة وابن رشد[2] من الناحية الأدبية والفلسفية...

وقد ترسخ ـــ تقليدا فكريا ـــ لاحقاـــ في الثقافة الإسلامية المعاصرة؛ ارتقى إلى حد المسلمة المعرفية، بحيث إنه كلما أثير سؤال الإنسان والأنسنة إلا واستُدعيت، بداهة وفورا، المرجعيات الدينية النقلية، والاجتهادية العقلية السافة الذكر. واللافت للنظر في هذا السياق؛ هو تغييب مرجعية معرفية تنتمي إلى الجغرافيا المعرفية الإسلامية، أصيلة في منطلقاتها الدينية ومؤصّلة للتحليل الفلسفي والتوصيف الأدبي لهذه القضية؛ قضية الأنسنة. يتعلق الأمر، هنا، بالمرجعية العرفانية. فالتراث العرفاني يعتبر أكثر حقول الثقافة الإسلامية انفتاحا على سؤال الإنسان، وأعظمها اهتماما بقضيته وجوديا وأخلاقيا ومعرفيا، وفي هذا السياق يقول عبد الرحمن بدوي: "... ويمتاز التصوف الإسلامي بنزعة إنسانية عالمية منفتحة على سائر الأديان والأجناس[3]. ومع ذلك نجد أن السائد في الدراسات الدينية المعاصرة؛ هو رجوعها المستمر والمتكرر إلى الإحالات الفقهية والكلامية، ومأثورات الأصوليين والمحدثين والفلاسفة... كلما تعلق الأمر بتيمة "الأنسنة"

[1]– أنظر عطاء الله زراقة: "التوحيدي: النزعة الإنسانية في الفكر العربي"، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2012.

[2]– أنظر عاطف أحمد ومجموعة من الباحثين: "النزعة الإنسانية في الفكر العربي، دراسات في النزعة الإنسانية في الفكر العربي الوسيط، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ط2، 1999. ص: 215.

[3]– عبد الرحمن بدوي: "الإنسانية والوجودية في الفكر العربي"، وكالة المطبوعات ودار القلم، (د ـــ ط)، بيروت، 1402هـــ ، ص: 46).

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

في المنابر العلمية من ندوات فكرية وملتقيات علمية، وتكاد تغيب الإحالة إلى الرؤية العرفانية في هذا المجال. ومرد ذلك "إما لأن الأذهان رسخت على أن الموضوعة لا تتأسس إلا من الناحية الفلسفية الأدبية المذكورة، بالنظر إلى سياقاتها وخصائصها الفكرية والتاريخية، وأحيانا، السياسية، والاجتماعية الاقتصادية، التي بات شبه متفق عليها بين الفلاسفة وأرباب الفكر. وإما لأن التصوف لا يعني شيئا بالنسبة لهذا العالم الماثل أمام أعيننا، حيث يطرق أبواب عوالم أخرى بعيدة عنا، وليس لدينا من الوسائل والآليات ما نكشف به عن تلك العوالم، فحكمها حكم الغائب المنفلت من قبضة الحس والعقل معا."[1]

رغم هذا المبرر إلا أن التساؤل يبقى ملحا حول الإمكان المعرفي العرفاني في تسليط أنوار إشراقه على إشكالية "الأنسنة". وانطلقا من هذا الإمكان نروم الانزياح بموضوعة الأنسنة من الخطاب الديني في خطيه النقلي والعقلي، والانتقال إلى الخطاب العرفاني للبحث في بواطن نصوصه، ومدلول مرموزه عما يلمح للأنسة ويشير إليها ويؤولها. قصد الوقوف على دلالة ومضمون مختلف وجديد لها من عمق التجربة العرفانية. من منطلق أنها "واقعة إنسانية، وتجربة وجودية لا تحسب على الثقافة الإسلامية وحدها، بل نجدها ظاهرة عالمية محورها الإنسان هنا وهناك"[2].

فما خصوصية الرؤية العرفانية لـــ "الأنسنة"؟ وما حدود وقيمة التجاوز المفهومي الذي أسسته العلوم النقلية والعقلية الإسلامية؟

---

[1]– منير عشقي: "النزعة الإنسانية بين خطاب الفلسفة وخطاب التصوف" ،مؤسسة دراسات مؤمنون بلا حدود، www.mouminoun.com، أفريل 2016. ص: 7.

Martin Lings, qu'est-ce que le soufisme?, traduit de l'anglais: Roger du Pasquier, Ed. du ــ 2 Seuil 1977, p17.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

يتعلق الأمر ،هنا، ومن منطلق هذا السؤال؛ بالنقلة الإبستيمولوجية لمفهوم "الأنسنة" من الفهم النقلي والعقلي إلى الفهم الإشراقي، من علوم الشريعة إلى علم الحقيقة.

4 . مقام الأنسنة أو مركزية الإنسان في الوعي الديني العرفاني:

يشكل العرفان أبرز وأكثر جوانب الثقافة الإسلامية انفتاحا على سؤال "الأنسنة"، واهتماما بقيمة ومكانة الإنسان والسعي لتربيته وبنائه الروحي والأخلاقي والنفسي والاجتماعي والنفاذ إلى عمق كينونته من كل نوافذه من قلب وعقل ووجدان وخيال وذوق... للسمو بوجوده إلى الأفق الروحاني النوراني المشرق. "ولعل أكثر تآليف الصوفية تدور على سن قواعد السلوك والمعاملات... غايتهم من ذلك تمكين المريد الصادق ـــ كما نعته زروق في عدته[1] ـــ من النمو والتطور الروحي لتحقيق نموذج الكمال الإنساني أخلاقا وسلوكا ومعرفة".

يتأسس مبدأ "الأنسنة" في الوعي الديني العرفاني انطلاقا من اعتبار الإنسان قيمة دينية في ذاته. ومدار هذه القيمة وفحواها هو التماهي بين الجوهر الإنساني والمعنى الإلهي، ليكون الإنسان إلهيا أو "الإنسان الكامل" بتوصيف ابن عربي. ووجه الكمال هو تمركز الجانب الإلهي في كينونة الإنسان. والإنسان بهذا التخريج المفهومي والقيمي العرفاني هو محور الأديان ومصدر وحدتها، فهو المسلم والمسيحي واليهودي... ينفتح على كل الأديان وهي على اختلافها تتقبله وترعاه. وفي كمال الإنسان وفاعليته في وحدة الأديان يقول جلال الدين الرومي:

"ماذا عساي أن أفعل أيها المسلمون؟ فأنا لم أعد أعرف نفسي.

[1]– الشيخ أحمد زروق: "عدة المريد الصادق"، تحقيق ودراسة: خالد عزوزي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، (د ـــ ط)، 1998. ص: 86.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

إني لست مسيحيا ولا يهوديا، لا مجوسيا ولا مسلما.
إني لست من الشرق ولا الغرب، لا من الأرض ولا من البحر،
لست لا آدم ولا حواء،
لا جسد لي ولا روح، لأني روح المحبوب نفسه،
تركت بعيدا كل اثنينية، إن العالمين شيء واحد"[1]

فهذا القول مثال شارح ومفصح عن خصوصية وأصالة النحت العرفاني لمفهوم وقيمة "الأنسنة".

إن العرفان في نزوعه نحو "الأنسنة" يعمل على تجسيد قيمها من خلال عنايته بالإنسان، ويتجلى ذلك في النهج التعليمي والتربوي الذي يعتمده في تحقيق نموذج الإنسان الكامل. وما يؤكد هذا التروع الإنسي ومحوريته في الخطاب العرفاني؛ هو "كون رجال التصوف جعلوا الممارسة الصوفية بما هي تحقيق لنموذج الإنسان المطلوب موضوعا للتلمذة والتربية والتعليم، حيث اشترط جلهم ضرورة اتخاذ الشيخ في طريق المريد".[2] وهذا ما يدل بوضوح على أن الظاهرة العرفانية ظاهرة إنسانية في المقام الأول تروم "بناء ونحت مفهوم جديد للإنسان انطلاقا من مرجعياتها الأخلاقية والوجودية".[3]

---

[1]– ترجمة عن كتاب:
Eva de Vitray –Meyerovitch, **Anthologie du soufisme**, Albin Michel, 1995, p.262

[2]– انظر: سؤال أبي إسحاق الشاطبي لابن عباد عن الشيخ والسلوك، ملحق: ضمن شفاء السائل وتهذيب المسائل، لابن خلدون، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1417 هـ 1996 م، ص174.

[3] – Eva de vitray –Meyerovitch, **Anthologie du soufisme**, Ed. Sindibad, Paris 1978. P. 32

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

ما يميز قيمة "الأنسنة" في الوعي الديني العرفاني هو وحدة الأفراد وتجانسهم وتدافعهم وتساويهم في الإنسانية فيما يضمن تعايشهم، ليس داجل جماعة بشرية معينة أو دين حدد، بل تتجاوز ذلك لتشمل جميع أفراد النوع البشري في العالم من أهل الأديان والملل والأجناس، ليشعر الجميع بواسطة هذا الامتداد أخوّة الأديان ووحدة الإنسانية قاطبة. وبهذا التوجه العرفاني تأخذ الأنسنة طابعا كونيا شاملا، بحيث يكون "الإنسان الكامل" ـــ كما نحت ابن عربي مفهومه وحدد المنهج التربوي لتمثل أنموذجه ـــ هو المقياس الوجودي والمعرفي والقيمي العابر للمجتمعات والأديان والثقافات والحضارات، ليشكل إطارا وجوديا جامعا لاختلافاتها، أي أن الانسان الذي يتعدد أفراده ويختلفون باختلاف ثقافاتهم وأديانهم واحد. وفي هذا المنحى الإنسي الوحدوي الجامع في كماله يقول ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينـــه داني
لقد صار قلبي قابلا كل صـــورة فمرعى لغزلان ودير لـــرهـــبان
وبيت لأوثـــان وكعبة طائـــف وألواح توراة ومصحـــف قرآن
أدين بدين الحـــب أني توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيمـــاني[1]

نجد في التصوير العرفاني لكمال الإنسان والعدة المفاهيمية التي وظّفها، والمنظومة القيمية التي بناها، والوسائل التربوية التي أحضرها لتحقيقه وبلوغ أفقه، ما يحقق "اجتماعية" الإنسان ويجسد ها في الفضاء العام على وجهها الإيجابي الفاضل والأكمل. حيث إن "الاجتماعية" بما هي خاصية وجودية موضوعية، وحاضنة للاختلاف الذي يتسم به أفراد النوع الإنساني، ويحكم علاقاتهم، تتحول إلى مقوم لتفعيل العيش المشترك،

[1] – ابن عربي: "ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق"، المطبعة الإنسية، بيروت، (د ـــ ط)، 1312هـــ، ص: 39.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

لأن الإنسان الذي يتمثلها أصبح مؤهلا للتعايش مع أفراد نوعه وجنسه الإنساني بفعل قيم الكمال التي تشربها وتلقاها من تربيته الصوفية.

وما يؤكد مركزية "الأنسنة" واستقطابها في الخطاب العرفاني، هو اعتبار ابن عربي الإنسان "المقصود من كل الوجود"[1]. وأنه أكمل الموجودات، لأنه يجمع الحقائق الظاهرة والباطنة، فيكون بمثابة "روح العالم"[2].

فمشروع الأنسنة في إخراجه وتخريجه العرفاني الأكبري يتمحور حول خاصيتي "الكمال" و"العالمية، ويقوم على سياسة روحية تستهدف إصلاح المملكة الإنسانية بما هي مدينة العدل والتسامح. ومن ثم فإن " النزعة الإنسانية الكونية عند ابن عربي ترسم لمفهوم الإنسان أفقاً عالمياً يستوعب اختلافات البشر وتنوعهم، فيظهر الناس كأنهم شخص واحد، فيكون "العالم كله إنساناً واحداً هو المحبوب، وأشخاص العالم أعضاء ذلك الإنسان"[3].

5 . الأنسنة كمطلب تحديثي وأفق حداثي للخطاب الديني المعاصر في إخراجه العرفاني:

إن الرؤية العرفانية إذ تتراح بالفعل التأويلي من دائرة تعقّلية المعنى في إلزاميته النصية إلى تأوّل الوجود الإنساني في أبعاده الروحية والأخلاقية والأنوارية، فهي قراءة حداثية للدين، وتأويل منفتح للنص ومن خلاله؛ محكوم بغائية مقاصدية، لكنها ليست

[1]– ابن عربي: "شجرة الكون"، ضبطه وحققه وعلق عليه، رياض عبد الله، دار العلم، بيروت، (د ـــ ط)، 1985، ص: 8.

[2]– ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 8 ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، 1999 م، بيروت، لبنان، ج1 ، ص 13.

[3]– ابن عربي، الفتوحات المكية، ج 7، ص382.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

مقاصدية بمدلولها الأصولي كما حدّها وحدّدها الشاطبي. إنها تأويل الدين بوجه إنساني ووفقا لمقتضى إنسي خالص. والتفكير في النص خارج إلزامية المعنى بالمنطق العرفاني هو الجواب عن السؤال المركزي في الخطاب الإسلامي المعاصر: ماذا يعني أن نفكر في الإسلام راهنا؟ لأن جوهر الراهنية هو الأنسنة، أي أن ينبثق من أعماق الإسلام/ النص نزعة إنسانية مستجيبة ومتوائمة مع روح العصر، تتسع لجميع أفراد النوع الإنساني متجاوزة لكل المحددات الجغرافية والعرقية والجنسية والدينية والثقافية... إنسانية واحدة موحدة يحتضنها وطن الحب الذي هندس مشروعه جلال الدين الرومي، ليقيم فيه الإنسان الكامل الذي بشر به ابن عربي. وهو الإنسان الحامل لقيم الحوار والتسامح، والتدافع والعيش المشترك، وهي القيم الكفيلة بتحقيق كرامة وحقوق الإنسان، وتدافع المجتمعات، وتواصل وتفاعل الحضارات...

فمفاد المطلب التحديثي للخطاب العرفاني؛ هو أن "الإنسان" هو الغاية العليا التي ينبغي أن تدرك، من النص، وأن يؤوّل وفقا لها. وبالفعل؛ فإن الفكر العرفاني تمكن من إحداث قطائع إبستيمولوجية نقلت الفكر الإسلامي من فكر النص في مفهومه الفقهي والكلامي إلى فكر الإنسان في بعده الإشراقي الأنواري، ليجعل من الإنسان مركز الدين ورسول السلام. وهذا هو الأفق الحداثي لحقيقة "الأنسنة". فإذا ارتقى الإنسان إلى أفق الحداثي كإنسان عمّ العالم السلام، فلا سلام لعالم يفتقد فيه الإنسان إلى إنسانيته، وهذا ما يذكرنا بمقولة أرسطو الشهيرة في كتابه "الأخلاق إلى نيقوماخوس": "**إن الإنسان أفقه الإنسان**". والإنسان الأفق هو جملة القيم الروحية والأخلاقية والفكرية والاجتماعية في أساسها الروحاني المشرق.

إن الحديث عن "الأنسنة" يحيل بداهة وعلى سبيل اللزوم المنطقي والسببي إلى "التنوير"، من منطلق وجود تلازم وظيفي بينهما: حيث إن ظهور النزعة الإنسية كان

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

ثمرة لفكر تنويري تحرري. وتعميق وسيادة الوعي التنويري مشروط بالتمكين للنزعة الإنسية وتمكنها من تجاوز النزعة اللاهوتية في تخريجها الكنسي الذي عمل على تدنيس الإنسان.

6 . الإنبات الإسلامي لـــ "التنوير" وإمكانية المراهنة عليه في مواجهة أزمات الراهن":

ما ينطبق على "الأنسنة" من أنها غربية التأسيس، وأن نصيب المسلمين منها هو التبني والتطبيق الحرفي لمبادئها ومستلزماتها في إخراجها الغربي ينسحب على "التنوير" بحيث يعتبر هو الأخر دعوة فكرية غربية في أصلها، وان حظ العرب والمسلمين منه؛ هو الإسقاط التام والاستنساخ الكامل للمشروع الأوروبي حياله. والحجة في ذلك "أن أشهر دعاة التنوير في عالمنا الإسلامي لم يكونوا يعلنون سوى أفكار كانط وهيغل ولوك وفولتير وروسو وديدرو وغيرهم، من دون تمحيص وتنزيل يتماشى مع احتياجنا الإصلاحي، لذلك تواطأ الفهم أن التنوير لا ينصرف إلا على التجربة الأوروبية وحدها".[1] والواقع أن التنوير ـــ مفهوميا وآداتيا ـــ لم يرتبط بجغرافيا أو تاريخ محدد في ظهوره، "بل هناك تنوير متعدد الجهات، بدأ في الشرق، وانتقل في أماكن متنوعة من العالم"[2]. فإذا كان هناك من ضرورة وأهمية للحديث عن أصل ومبدأ للتنوير ،واستناد للإحداثيتين الجغرافية والتاريخية، فإن هذا الأصل يرتد إلى البعثة المحمدية. "وقد سمى هذا الحدث العظيم الدكتور زين العابدين الركابي ((نهضة التنوير الكبرى)). ووجه الخصوصية والمفارقة في هذا الأصل المحمدي للتنوير هو البعد والمنطلق والأفق الديني الذي

[1]– مسفر بن علي القحطاني: "صدام القيم"، قراءة ما بعد التحولات الحضارية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت 2015، ص: 111.

[2]– مسفر بن علي القحطاني: المرجع نفسه، ص: 107.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

يعتبره الفكر الغربي عائقا أمام التنوير؛ تجب مقاومته والثورة عليه. ما دام التنوير بطبيعته "يتجه إلى تفكيك الوعي الديني، ويكشف عن الطابع الدنيوي القابع خلف الخطابات اللاهوتية التي تدعي انحيازها إلى السماء فقط"[1].

و"البعثة" بما هي حدث ديني فارق في تاريخ البشرية؛ حاملة لرسالة النور المبدد لظلام الجهل والجاهلية. فإذا كان التنوير :"هو استحضار العقل بعد غيبة، وتحريك طاقة التفكير بعد جمود... وتسديد حركة التفكير بمنهج علمي سديد عاصم من الأوهام، والمعتقدات الفاسدة، والتقليد الضرير، ثم بناء المعتقد والمفاهيم والأعمال وفق هذا المنهج السديد"[2]. فهذا هو مضمون البعثة، ومفهومها الوظيفي. فهي بعث للتنوير، المشتق من النور في تأصيله القرآني. وبالتالي فإن ما يصرح به النص القرآني بأن البعثة نور وتنوير، كما يتبّين ذلك من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا)[3]. وقوله تعالى: (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)[4]. وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)[5].

[1]– حمد برقاوي: المرجع نفسه، ص: 28.

[2]– زين العابدين الركابي: "نهضة التنوير الكبرى"، نقلا عن مسفر بن علي القحطاني: "صدام القيم"، مرجع سابق، ص: 107.

[3]– سورة النساء، الآية: 174.

[4]– سورة الطلاق، الآية: 11.

[5]– سورة الأحزاب، الآية: 43.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

بهذا التأصيل القرآني لمفهوم ووظيفة "التنوير "، يتحدد ويتأكد أساسه الديني والذي يستبطن البعد العقلاني، "فهو مفهومٌ مصطبغ بالصبغة القرآنية، منصرفٌ إلى حقيقة التنوير وطبيعته الأصلية، التي تجمع بين تنوير العقل، وبين تنوير القلب"[1]. وهو ما يفيد أنه ليس ثمة تعارض بين الدين والعقل فيما يتعلق بسؤال أصالة وفعالية "التنوير. وأن الديني سابق على العقلاني في عملية التأسيس، وموجه له.

7 . التنوير في الخطاب الديني المعاصر من النص إلى الاجتهاد.. القيمة وسؤال الفعالية:

إذا كان التنوير يرتبط بالعقل تفكيرا ونقدا، فإننا نجد ما ينفيه ويطفئ أضواءه في أحد أهم التيارات الفكرية المؤسسة للخطاب الديني المعاصر، وهو الحركة الوهابية (بقيادة محمد بن عبد الوهاب). (1703 ــ 1791). وهي حركة تتمسك بالتفسير الحرفي للنص، أي عدم إعمال العقل الذي هو جوهر الفعل التنويري. وهي في هذا التوجه تنهل من فكر ابن تيمية. وقد امتد تأثير هذه الحركة لاحقا ليكون مرجعية لحركة الإخوان المسلمين من خلال تبني مؤسسها حسن البنا للأفكار الوهابية. وبعده سيد قطب الذي حكم على العقلانية المؤسسة للثقافة الغربية بأنها جاهلية القرن العشرين. وعلى ذكر ابن تيمية باعتباره ملهم الدعوة الوهابية ومرجعها، يجب لفت الانتباه إلى وجود حركة إسلامية تنويرية ذات توجه فلسفي، ظهرت في الغرب الإسلامي، وهي التي مثلها ابن رشد، والتي من الممكن ان يستمر فكرها التنويري وينتشر تأثيرها ويمتد إلى المرحلة المعاصرة بحيث تضيّق على الدعوة الوهابية. لكن هذه الحركة العقلانية الأنوارية وجدت نفسها محاصرة بين مرجعيتين دينيتين متحفظتين من العقل، إحداهما سابقة على الرشدية

[1] – عبد العزيز بن عثمان التويجري: "مفهوم التنوير في التصور الإسلامي"، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو الطبعة الثانية 1436هـ ، 2015 م ص: 19.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر: 05–08–2020

وهي تلك التي مثلها أبو حامد الغزالي، والأخرى لاحقة، والتي يمثلها ابن تيمية. فكل منها عارض مشروعية إعمال العقل في النص الديني. وبحصارهما للمشروع الرشدي والتضييق عليه، خفتت أنوار العقلانية الإسلامية وحجب إشعاعها ضباب الوهابية الكثيف. فإذا كان التنوير يشير إلى سلطان العقل، فإن في الدعوة الوهابية في أصولها الدينية التراثية، وامتداداتها الفقهية والإيديولوجية ما ينافي التنوير و يحاربه. لكن سرعان ضعف تأثير الدعوة الوهابية في عصر النهضة العربية بظهور حركات تنويرية حاولت أن تعيد للعقل سلطانه، وهي حركات ذات توجهات علمانية كتلك التي أسسها شبلي الشميل، وليبرالية والتي مثلها رفاعة الطهطاوي.

واللافت للنظر؛ هو ظهور حركات ذات توجهات إصلاحية دينية، حاولت أن تؤسس للتنوير من داخل النص الديني ذاته، كتلك التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الحميد ابن باديس...

ومن بين هذه الحركات الإصلاحية الدينية المعاصرة التنويرية المناهضة للوهابية والدعوات المتفرعة عنها، وفي خضم جدلها الفكري حول قضايا العصر وتحدياته، ظهر تيار فكري أصيل، عمل إحياء التراث الإسلامي التنويري، وإعادة بعث قيمه، والبحث عن مدى راهنيتها للواقع المعاصر، ويتعلق الأمر، في هذا السياق، بالتراث العرفاني الإسلامي.

فإذا كان التنوير في أغلب أدبياته المعاصرة يقابل ما هو ديني غيبي، فإنه في الموروث الإسلامي في خطه العرفاني، ينبثق من عمق الديني في مطلقية غيبيته، ويستمد منه مفهومه ووظيفته. وهو ليس موقفا من الدين، مناصر للعقل، بل هو موقف ديني في جوهره. أي أن هناك تنوير ديني غيبي يقابل التنوير العقلاني في أدبياته الغربية المعاصرة.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

8. التنوير في الخطاب العرفاني: خصوصية المفهوم ومدى فعالية الآداء والراهنية:

إن ما يكشف عن التحديد المفهومي لـــ "التنوير " في الخطاب العرفاني، ويحيل إليه هو مقولة "الإشراق". فهي إذ تدل في القاموس العرفاني على معنى "سطوع نور الحقيقة"، ففي هذا المعنى ما يكشف ـــ على سبيل اللزوم والمطابقة ـــ عن حقيقة "التنوير" في الرؤية العرفانية. والتنوير في تمفصله المفهومي بـــ "الإشراق"، يزيح العقل كمنطلق له ويتراح إلى القلب وينحاز إليه. وفيما يدل على تلازم التنوير بالقلب قول أبي حامد الغزالي عنه، أنه "نور يقذفه الله في القلب". وهو ما يوحي به أيضا عنوان كتاب الصوفيّ الشهير ابن عطاء الله الاسكندري، وهو "التنوير في إسقاط التدبير". وانفصال التنوير عن العقل واتصاله بالقلب، هو وصل له بالدين ، واستعاضة عن البرهان بالإيمان. ومن ثم تغدو حقيقة التنوير دينية وليست عقلانية في أساسها. ولذلك نجد في فلسفة الإشراق عند السهروردي ـــ مثلاـــ "ومؤمن منور القلب: إذا دخل النور إلى قلبه انشرح وانفسح". ومن ذلك سميت الصوفية/ العرفانية بالنورانية، "كما أن الصوفية يطلقون كلمة النور على الحق سبحانه وتعالى، ويسمونه أيضاً نور الأنوار، والنور المحيط والنور القيوم، والنور المقدس، والنور الأعظم الأعلى، ونور النهار"[1].

ومن هذه الإحالات القاموسية والمفهومية؛ نفيد أن التنوير في خطه الروحاني العرفاني، حقيقة من حقائق الدين، وحركة إحياء إسلامي لتحقيق مقاصد الدين، وتجديد لمفاهيمه. بكيفية جعلت إفادته من النص الديني مشدودة إلى مقصد استخلاص المفاهيم

[1]– لمعرفة تفاصيل المصطلح، أنظر: معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني. دار المسيرة للصحافة والطباعة، ط2، 1987.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

والمقيم ذات البعد الإنساني، ليؤسس لفكر الإنسان بديلا عن فكر النص الذي انخرط فيه العقل الفقهي والكلامي.

9 . التنوير العرفاني في مواجهة الراهن:

فالتنوير في اتجاهه وتوجهه العرفاني يسعى، إذن، إلى تعزيز الوعي الديني وتجاوز سلطان العقل. والفكر الإسلامي المعاصر إذ يستعيد التجربة العرفانية في تفعيل "التنوير" كقيمة وآلية معرفية في مواجهة مستجدات ومشكلات العصر، يلجأ إليه في إعادة صياغة منظومة المعتقدات السياسية والأخلاقية والاجتماعية بما يتوافق مع حاجات الحاضر وتطلعات المستقبل، ومواجهة التحديات المفروضة، وذلك من خلال تكوين الإنسان وإعداده نفسيا وروحيا ومعرفيا ليكون في مستوى تلك التطلعات. لأن نور الحقيقة الذي يستحدسه المريد المتلقي، ينير قلبه بالإيمان، مما يجعل القلب مركز التنوير وليس العقل، وعند ذاك يكون القلب مستودعا لقيم الحب والأخوة والتسامح والصفح... وهي المكونات البنيوية لحقيقة "الأنسنة". وبهذا التأصيل الروحاني العرفاني لـــ "التنوير" في وصله وانطلاقه من الدين الذي لا يستبعد العقل ولا ينفي دوره في الفعل التنويري، تكون "الأنسنة" التي يؤسس لها ويفعّلها، رهانا حقيقيا لمواجهة مشكلات العصر، ولتحقيق المنّة الإلهية المتمثلة في تكريم الإنسان، لحفظ توازن المجتمع وانسجامه، وتمكينه من التعايش مع المجتمعات الأخرى. وتمكّن من إنجاح عملية حوار الأديان والثقافات والحضارات، لتتحقق بذلك وحدة الإنسانية، ولا تعيق اختلافاتها الفكرية والمذهبية والعرقية... من توافقها على السلام والتدافع، وتقاسم الهم والمصير المشترك. وإننا لنجد في نظرية "وحدة الوجود" و"وحدة الأديان"، و"الإنسان الكامل" في المذهب العرفاني لابن عربي، والتي تجمع تصوراتها وضمّن حقائقها في كتابيه الشهيرين: "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم"، ما يجسد هذا الأفق المقاصدي للتنوير العرفاني في راهنيته.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

هذه الأبعاد المقاصدية، تؤكد بحق؛ أن الخطاب العرفاني؛ خطاب تنويري في جوهره، تتحدد وظيفته؛ والمتمثلة في قراءة مختلفة للتنوير في منطلقه العقلاني؛ قراءة العالم والإنسان. ومن ثم؛ فإن تقصيا عميقا للفكر العرفاني، يكشف بدقة ووضوح عن استبطانه للرؤى الحداثية للإنسان والمجتمع والعالم. تنطلق من سعيه إلى أنسنة الدين والغيب، ليكون الإنسان إلهيا في كينونته وصيرورته. وبذلك كان الخطاب العرفاني " وبامتياز تجليا مشرقا لأنسنة مبكرة وفلسفة وجودية قبل وجودية سارتر وهايدغر ورؤية هرمونوطيقية قبل بول ريكور وفلسفة التأويل المعاصرة"[1]. وهي أنسنة لازمة عن التنوير وملزمة له في نفس الوقت. حيث إن إشراقية التنوير تضمّن قيمة الأنسنة حمولة روحانية، وبعدا كونيا، فيكون الإنسان الذي يتمثلها؛ إنسانا كاملا ،كونيا، ومنفتحا على المختلف من الثقافات والحضارات والمجتمعات، والمذاهب والديانات... ووسطا ووسيطا وجوديا تلتف حوله الهويات وتتصالح، فيكون هو الأنا وهو الأخر، وبجمعه لهذين النقيضين الوجوديين يحقق العولمة في مدلولها العرفاني ويجسد مفرداتها في الواقع الاجتماعي، فتنطبق عليه نونية ابن عربي الشهيرة التي يقول فيها:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلا كـــل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبـــان
وبيت لأوثـــان وكعبـــة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحـــب أني توجهت ركائبه، فالحب ديني وإيمـــاني[2]

[1]– نذير الماجد: "التصوف كخطاب تنويري"، الحوار المتمدن، العدد 3062 – 16 /06/ 2010. http://www.ahewar.org/m.asp?i

[2]– ابن عربي: "ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق"، مصدر سابق، ص: 39.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

الخاتمـــة:

ما يمكن استخلاصه من تحليلنا لإشكالية البحث في أصولها وفصولها، هو أن "الأنسنة" و"التنوير" هما قوام تجديد الخطاب الديني، ومقياس صلاحه وصلاحيته وقدرته الإصلاحية، ومحك فاعليته في الرهان عليه، ومدى راهنيته في التعاطي مع مشكلات العصر والتكيف مع مستجداته. وهما الآليتان الكفيلتان بالارتقاء بالإنسان إلى أفقه الإنساني الذي يقتضيه منطق الاستخلاف في الأرض وتعميرها، وسنة بناء المجتمعات وتطورها، لما يمثلانه في تلازمها الوظيفي من مجال خصب وحيوي لفعلٍ حضاري رشيد ومشترك إنساني مفيد. ووجه الإفادة هو ترسيخ وتفعيل قيم الحوار والتسامح والعدل والديمقراطية وحماية الحقوق... فهذه القيم نتاج طبيعي للفكر التنويري، ولانتصار النزعة الأنسية وتمركزها في المجتمع.

إلا أن الخطاب الديني المعاصر سجل إخفاقات كثيرة في تعامله مع سؤالي الأنسنة والتنوير، فانتهى في الكثير من اجتهاداته إلى تعطيل الفعل المعرفي للتنوير، من خلال تمسكه بحرفية النصوص، والتعصب المذهبي والفقهي، واعتباره النقد مدخلا إلى الكفر، وقد وجدنا في الدعوة الوهابية مثالا واضحا ومفصحا عن ذلك. وقد ارتبطت هذه الإخفاقات في أغلبها بالمرجعيات الفقهية والكلامية المحكومة بمنطق ومنطوق الشريعة.

وواقع الإخفاق أحال تفكير قطاع واسع من المهتمين بالخطاب الديني المعاصر إلى الانتباه إلى مرجعية دينية أصيلة متجاوزة لمنطق الشريعة إلى منطق الحقيقة في مقاربة أسئلة الأنسنة والتنوير. وهي المرجعية العرفانية التي نقلت التفكير من النص إلى الإنسان، ومن المعرفة إلى الوجود، واتخذت من الإشراق ـــ الذي هو في جوهره فعلا تنويريا ـــ منهجا في المعرفة. ومقولات: وحدة الوجود ـــ وحدة الأديان ـــ الإنسان الكامل ـــ

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد:34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر:05–08–2020

الحقيقة المحمدية ـــ ترجمان الأشواق (الحب)... في تخريجها وإخراجها الأكبري تفيض بدلالات الأنسنة والتنوير. مما يجعل من الخطاب العرفاني خطابا دينيا متجددا يستبطن مقومات الراهنية والمواكبة لكل مستجد يطرأ على الأمة، ويحفظ لها هويتها أمام تحدي العولمة الكاسح.

النتائج والتوصيات:

مصادر ومراجع البحث:

ـــ قرآن كريم

1 ـــ عبد المنعم الحفني: "معجم مصطلحات الصوفية"، دار المسيرة للصحافة والطباعة، ط2، 1987.

2 ـــ ابن عربي: "ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق"، المطبعة الإنسية، بيروت، (د ـــ ط)، 1312هـــ.

3 ـــ الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم): "الموافقات"، تحقيق عبدالله دراز 6/2، دار المعرفة، بيروت، 2011.

4 ـــ أحمد برقاوي: "مقدمة في التنوير"، دار معد للطباعة والنشر، دمشق، ط2، 1998.

5 ـــ أحمد زروق: "عدة المريد الصادق"، تحقيق ودراسة: خالد عزوزي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، (د ـــ ط)، 1998.

6 ـــ ابن عباد: "سؤال أبي إسحاق الشاطبي عن الشيخ والسلوك"، ملحق: ضمن شفاء السائل وتهذيب المسائل، لابن خلدون، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1 ،1417 هـــ 1996 م،.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر: 05–08–2020

7 ــ ابن عربي: "شجرة الكون"، ضبطه وحققه وعلق عليه، رياض عبد الله، دار العلم، بيروت، (د ــ ط)، 1985.

8 ــ ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 8 ، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، 1999.

9 ــ مسفر بن علي القحطاني: "صدام القيم"، قراءة ما بعد التحولات الحضارية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت 2015،

10 ــ عاطف أحمد ومجموعة من الباحثين: "النزعة الإنسانية في الفكر العربي، دراسات في النزعة الإنسانية في الفكر العربي الوسيط، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، (د ــ ط)، 1999.

11 ــ عبد الرحمن بدوي: "الإنسانية والوجودية في الفكر العربي"، وكالة المطبوعات ودار القلم، (د ــ ط)، بيروت، 1402هـ.

12 ــ عبد العزيز بن عثمان التويجري: "مفهوم التنوير في التصور الإسلامي"، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو الطبعة الثانية 1436هـ، 2015 م.

13 ــ محمد سبيلا ــ عبدالسلام بنعبد العالي: "الحداثة الفلسفية: نصوص مختارة"، طبعة الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، 2009.

14 ــ عطاء الله زراقة: "التوحيدي: النزعة الإنسانية في الفكر العربي"، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2012.

15 ــ فيصل عباس: "الفلسفة والإنسان"، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، ط1، 1996.

مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة الجزائر–
ر ت م د: 1112–4040، ر ت م د إ: 2588–X204
المجلد: 34 العدد: 01 السنة: 2020 الصفحة: 207–232 تاريخ النشر: 05–08–2020

16 ــ محمود حسين: "البعد الإنساني في العصر الإسلامي"، مقال ضمن رسالة اليونيسكو، السنة 64، العدد 4، أكتوبر 2011.

17 ــ مسفر بن علي القحطاني: "صدام القيم"، قراءة ما بعد التحولات الحضارية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت 2015.

18 ــ منير عشقي: "النزعة الإنسانية بين خطاب الفلسفة وخطاب التصوف"، مؤسسة دراسات مؤمنون بلا حدود، www.mouminoun.com، أفريل 2016.

19 ــ نذير الماجد: "التصوف كخطاب تنويري"، الحوار المتمدن، العدد، 3062 – 16 /06/ 2010. http://www.ahewar.org/m.asp?i

20 ــ Martin Lings, qu'est-ce que le soufisme?, traduit de l'anglais: Roger du Pasquier, Ed. du Seuil 1977.

22 ــ Eva de vitray –Meyerovitch, Anthologie du soufisme, Ed. Sindibad, Paris 1978